جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ديالى
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية/ الدراسات العليا

جَوامِعُ الكَلِم فِي خِطَابَاتِ أئمَّةِ أهل البَيْتِ (عَليْهِمُ السَّلام) فِي كِتَابِ مِيْزَانِ الحِكْمَة لِمُحَمَّدِ الرَّيْشَهْري

دِرَاسةٌ حِجَاجِيَّة

أطروحة قدمتها

الى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة ديالى

وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في

فلسفة اللغة العربية وآدابها/ تخصص (اللغة)

الطالبة

رابعة حسين مهدي الحمداني

بإشراف

أ.د. محمد صالح ياسين

١٤٤٦هـ ٢٠٢٥م

Abstract

Alhijaj is the rhetoric of this time, and it is one of the topics that has received wide attention from scholars in general. The importance of argumentative speech lies in the fact that it is more relevant to the audience than other speeches, and is more widely used and circulated than others. Its goal is based on attracting or influencing the opponent by using certain persuasive techniques that aim to change the recipient's beliefs or push him to adopt a different behavior, as it constitutes an argumentative authority that affects his mind and leads him to accept the theses and ideas presented to him.

The heritage of the Houshold (peace be upon them) was and still is worthy of study and analysis, and of revealing the depth of its connotations. It is an inexhaustible source in terms of its doctrinal, philosophical, jurisprudential, social, political, educational, and other cognitive fields. In order to demonstrate the legitimacy of this knowledge, the Household (peace be upon them) sought to establish clear evidence and strong arguments to prove these true contents and convince the recipient of them through effective argumentative techniques recorded by argumentative linguistics in the modern era; and for this reason this study came.

Accordingly, this study sought to shed light on the values of dialogue and the discourse of reason, by presenting arguments and evidence in their various forms and diversity, as the only way to convince the recipient of the validity of the ideas and beliefs presented to him. It also demonstrated the authenticity of the argumentative lesson derived from the Islamic heritage, represented in the speeches and sayings of the Imams of the Household (peace be upon them), and the effectiveness of its influence on successive generations.

Finally, this study also revealed the linguistic and rhetorical mechanisms and argumentative techniques that govern the construction of argumentative

discourse, and their pivotal role in attracting the addressees, and their submission and surrender to the content and purposes of the discourse. In addition to that, it aims to enrich the Arab and Islamic library with a new type of studies that combine the authenticity of our Islamic heritage with contemporary theories.

الفصل الأول

الأساليب النحوية والبيانية في التحليل التداولي عند الريشهري في ميزان الحكمة.

توطئـــة:

لمَّا كانت الفعَّالية الحِجاجية تقومُ أساسًا على استعمال اللغة بين إطرافٍ يرومون إلى تحقيق أهدافٍ تواصلية، لذا كان من الطبيعي إنَّ يُبتنى الحجاجُ على أُسُسٍ تداولية في مقابل ذلك؛ وبما أنَّ العملية الحجاجية تكون بين أطرافٍ مختلفينَ في وجهات نظرِهم، لذا هَدَفَتْ الممارسة الحِجاجية إلى حَلِّ هذا الخلاف في الرأي أو التقارُبِ فيه، مع ضمان عدم الخروج عن المعايير العقلية والموضوعية، عن طريق عمليةٍ تنظيرية للحِجاج تقوم على قواعد جدلية تداولية منضبطة ومتكاملة.

إنَّ التحليل للخطاب الحجاجي يُراعى فيه مصداقيةِ مُنشئي الخطاب الحِجاجي، وعدم اتهامهم بأنَّ جُلَّ عنايتهم مُنصبَّةٌ على إثبات صحة مقاصدهم، وإقناع مخاطَبيهم بتبني وجهات نظرهم، فالخطيبُ في نقَلاتِه الحِجاجية، وما يقدِّمه من حلولٍ موضوعية تَسهُم في رفع الاختلاف بين الآراء، عليه أنْ يحافظ على صورتهِ نقيةً عن طريق التزامه بقواعد الحِجاج النظيفة، وأنَّ ما قاله بالأمس لا يُناقض أو يُغالط ما يقوله اليوم، فلن يكونَ في وسعِهِ قطعًا الفِرار من مسؤوليته الجدلية، أو أنْ يدَّعي ممارسته لأساليب البيان[1].

في هذا الفصل سأعالج الأساليب النحوية والبيانية عن طريق التحليل التداولي للخطاب التداولي في كتاب (ميزان القيامة) للريشهري.

.

(١) ينظر: دراسة الخطاب الحجاجي في منظور الجدل التداولي، د. أحمد عبدالحميد عبد الحميد: ٥٩.

مفهوم التداولية:

التداول في اللغة: مصدر تداولَ، يُقال: دال يدولُ دولاً، بمعنى انتقل من حالٍ إلى حال، ودالت الأيام، أي دارت، وتداولت الأيدي الشيءَ: أخذته هذه مرةً وتلك مرَّة[١].

التداولية في الاصطلاح: تعددت مفاهيم التداولية بتعدد تعريفاتها، فالبعض يُعرِّف التداولية انطلاقًا من نظريات أفعال الكلام بأنَّها: ((عِلمُ استعمالِ اللُّغة في المقام))[٢]، وتُعَرَّف أيضًا بأنَّها: نَسقٌ معرفيٌ استدلالي عام، يُعالج الملفوظات ضمن سياقاتها التلفُّظية، والخطابات ضمن أحوالها التخاطبية[٣].

ويعرِّفها اللسانيون بأنَّها: ((مجموعةُ البحوث اللِّسانية المنطقية التي تهتم بدراسة الكلام، وتبحث في مطابقة الأشكال الدالة للسياقات المرجعية، ومنهم من يرى أنَّها: دراسةُ استعمالات الكلام كظاهرةٍ استدلالية وتداولية وإجتماعية في الوقت ذاته، ومنهم من يرى أنَّها نظامٌ لسانيٌ يهتم باستعمال الكلام في التواصل))[٤].

إنَّ مفهوم التداولية يُسلط الضوء على معنى التواصل، الذي يعني: ((التبادل الكلامي بين المتكلم، الذي يُنتج ملفوظًا أو قولًا موجهًا نحو متكلمٍ آخر يرغب في السَّماع أو إجابة واضحةٍ أو ضمنية، وذلك تبعًا لنموذج الملفُوظ الذي أصدره .

---

(١) ينظر: جمهرة اللغة: ٦٨٢/٢، ولسان العرب: ٢٥٢/١١.

(٢) التداولية والحجاج- مداخل ونصوص، صابر الحبشة: ١١.

(٣) ينظر: التداوليات علم استعمال اللغة، حافظ اسماعيلي علوي: ٣٢.

(٤) الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري- بنيته وأساليبه، سامية الدريدي: ١٦.

المتكلم))[1].

إنَّ التبادل الكلامي بين المتكلم والمتلقي، يهدفُ أساسًا إلى التأثير والإقناع، عن طريق خِطابٍ سَرديٍّ منجزٍ، ومشفوعٍ بالتعليل والحُجج والشواهد المتنوعة، يلقيه المُرسِل على مسامع المتلقي ليُحدِث فيه تأثيرًا فكريًا وسلوكيًا، بُغيةَ استمالته إلى تبني مقاصد المُرسِل.

إنَّ تَوَسُّع مفهوم الحِجاج أدى به إلى أن يكون ملتقى جميع العلوم والاختصاصات، وتتقاطع معه في نفس الوقت، فهو يتقاطع مع الكثير من المجالات بشكل أو بآخر، ويتداخل معها في آنٍ واحد، ومن هذه المجالات هي التداولية[2].

إنَّ دراسة البُنية التداولية لأيِّ خطابٍ حجاجي، لا تكون إلاّ عن طريق متابعة وتحديد أساليب تحليل الخطاب الحجاجي التداولي، والتحليل التداولي يوجِّهُ جُهودَه إلى الخطاب ومنشئِهِ، فالمتصدي للتحليل التداولي يقترب من النصِّ الخطابي، ويقوم بتحليل ما تضمنه من الحُجج التداولية، ومعرفة الخطاب، سواءًا كان مباشرًا أم غير مباشر، بُغية البحث عن بُنيته الداخلية والخارجية، ولا نعني بتحليل الخِطاب تداوليًا معرفة معانيه الحَرْفية أو مظاهره الجمالية، إنَّما المراد هو الوصول إلى معرفة معناه في الاستعمال؛ كما أسلفنا في تعريفه.

وكذلك من واجبات التحليل التداولي للخطاب الحجاجي الاقتراب من مُنْتِج الخطاب أو الفاعِل له، وذلك عن طريق خطابه الذي أنتجه، والوقوف على الإجراءات

(١) اللغة والتواصل– اقترابات لسانية للتواصليين الشفهي والكتابي، عبد الجليل مرتاض: ٧٨.

(٢) ينظر: المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية، جمال حضري: ٢٦٢.

الحجاجية التي تبنَّاها الخطيب على مدار النص[1]، وكذلك تحليل العلاقة الحوارية بين المرسِل والمُرسل إليهم، وسَبْرِ أغوار هذه العلاقة، عن طريق النص الخطابي ذاته، وما تتجلى فيه من المعاني والمقاصد.

.

(١) ينظر: آليات التحليل التداولي للخطاب التعليمي، حورية بزا – د. أحمد واضح، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد/٣- ٢٠٢١م: ١٩.

المبحث الأول: المقتضى وأثرها الحِجاجي.

تناولت الدراسات التداولية والحجاجية مفهوم المقتضى بعنايةٍ بالغة، لما له من أثر محوريٍّ في معرفة المعاني المُضْمرة والمخفية فيما وراء النصوص الخِطابية المختلفة، والكشف عن بُنية الألفاظ غير المصرَّح بها ممَّا تضمَّنته هذه النصوص في أثنائها، فالعملية الحجاجية بما تنشُدهُ من تحقيق الإقناع والإذعان، لها أكثرُ من طريق، فالمعاني المضمرة التي اقتضاها النص الخطابي طريقٌ من طرائق الحِجاج، تُنافس المعاني المُصرَّح بها وتُباريها في هذا الميدان، فالخطيبُ يلجأ أحيانًا إلى عرض أفكاره وأغراضه بشكلٍ ضمنيٍّ، غيرَ مُصرِّحٍ بها مباشرةً، تاركًا المتلقي يؤدي دوره في كشف هذه المعاني، وفكِّ شفرتها، وفهم دلالتها المُضمرة خلف ألفاظ هذا الخطاب.

أولاً: الاقتضاء لغة:

مصدر الفعل قضى، وأصله: القطع والفصل، يُقال: قضى يقضي قضاءً، فهو قاضٍ: إذا حَكَم وفَصل، وقضاء الشيء: إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى: الخَلْق، قال تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ ﴾[1]، وقال الزُهري[2]: القضاء في اللغة

(١) سورة فصلت، من الآية (١٢).

(٢) محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور: أحد الأئمة في اللغة والأدب والفقه، ثقة ثبتا دينا، مولده ووفاته في هراة بخراسان (٢٨٢- ٣٧٠هـ)، عني بالفقه فاشتهر به أولا، ثم غلب عليه التبحر في العربية، من كتبه (غريب الألفاظ التي استعملها الفقهاء) وغيرها. ينظر: سير أعلام النبلاء ٣٢٨/١٢، الأعلام، للزركلي: ٣١١/٥.

على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، وكل ما أُحْكم عمله، أو أتمَّ، أو خُتِم، أو أُدِّيَ، أو أوجب، أو أعلم، أو أنْفَذ، أو أمضي[١].

ثانيًا: الاقتضاء اصطلاحًا:

عرَّف الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) المقتضى بقوله: ((هو الذي لا يدل اللفظ عليه، ولا يكون ملفوظًا، ولكن يكون من ضرورة اللفظ أعم من أن يكون شرعيًا أو عقليًا، وقيل: هو عبارة عن جعل غير المنطوق منطوقًا لتصحيح المنطوق، مثاله: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾[٢]، وهو مقتضى شرعًا لكونها مملوكة، إذ لا عِتقَ فيما لا يملكه ابن آدم، فيزاد عليه ليكون تقدير الكلام: فتحرير رقبة مملوكة))[٣].

إنَّ المقتضى التركيبي هو الذي يستند في وجوده إلى سندٍ تركيبي، كالاستفهام والتوكيد والقصر والشرط وغيرها، فقولنا مثلاً: (منْ غادر؟) يقتضي بأنَّ (شخصًا ما غادر) وقولنا: (ما فاز إلا أهلُ التقوى) يقتضي بأنَّ: (غير أهلُ التقوى لم يفوزوا)، وهكذا في باقي التراكيب الأخرى[٤].

ومن المؤكَّد أنَّ وجود المقتضى يكون داخل اللغة، فهو منغرسٌ في المكون اللساني الذي يشكِّل بُنيتها، ولا وجود له في المكون البلاغي، فالمقتضى هي تلك المعاني والمفاهيم التي أضْمرتْ في الجملة، وليست المعاني المصرَّحُ بها، فهذه تسمى

---

(١) ينظر: لسان العرب: ١٨٦/١٥، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٧٨/٤، والمطلع على ألفاظ المقنع: ٤٧٨.

(٢) سورة المجادلة، من الآية (٣).

(٣) التعريفات: ٢٢٦.

(٤) ينظر: المقتضى التركيبي وأدواره الحجاجية، د. كمال الزماني: ٥٦١.

منطوق الكلام، والمقتضى يتمُّ عن طريق إدراج تراكيبٍ وعناصر ضمن معناها المُعْجَمي، تكون هي المسؤولة عن ظهور المقتضى، وهذه التراكيب والمقتضيات إذا ما وُضعت في مكانها المناسب وَجَّهت الخِطاب وجهةً حجاجية فاعلةً، ووهبته قوةً إقناعية ناجعة.

ومن تلك العناصر والتراكيب اللسانية التي يهدف الخطيب عن طريقها تأكيد كلامه وزيادة حضوره فيه، هي مؤكِّدات الخبر، مثل: (إنَّ) و(أن) و(القسم) وأدوات القصر وغيرها، فكأنَّ الخطيب عن طريق توظيف هذه العناصر اللسانية، يعوِّض جُملةً أخرى تقوم مقامها، يقول ابن جِنِّي (ت: ٣٩٢هـ): ((إذا قلتَ: ما قام زيد، فقد أغنت (ما) عن (أنفي)؛ وهي جملة فعل وفاعل، وإذا قلتَ: قام القومُ إلا زيدًا، فقد نابتْ (إلا) عن (أستثني) وهي فعلٌ وفاعل، وإذا قلتَ: ليت لي مالًا، فقد نابت (ليت) عن (أتمنى)))[١]، فالخطيبُ في إدراجه تركيبًا لسانيًا مثل (إنَّ) بقوله: (إنَّ زيدًا قائم) هو تعويضٌ لجملة: (أنا متأكدٌ من قيام زيد)، وإذا أضاف عنصرًا آخر، فقال: (إنَّ زيدًا لقائم) كان تعويضًا لجملة: (أنا متأكد جداً من قِيام زيد) وهكذا، فإنَّ إضافة أيةُ أداةٍ من أدوات التركيب إلى الجملة يدعِّم مقتضاها[٢].

ويمكن العودة إلى أقوال وخطب أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في كتاب (ميزان الحكمة) للريشهري، نجد أنَّها زخرت بأصنافٍ من العناصر والتراكيب اللسانية من حذفٍ وفصلٍ ووصلٍ وقصرٍ وتوكيد وغيرها، وهيمنت عليها، التي إذا ما وُضعت في الكلام، كانت هي المسؤولة عن ظهور المقتضى، انطلاقًا من معناها المُعجمي المنطوق، واستخدامهم (عليهم السلام) لهذه التراكيب المُنْتجة لهذه المقتضيات في

(١) الخصائص: ٢/٢٧٥- ٢٧٦.

(٢) ينظر: المقتضى التركيبي وأدواره الحجاجية، بحث علمي، د. كمال الزماني: ٥٦٢.

خطبهم، كانَ بسبب طبيعة الظروف والأحوال التي قِيلت فيها، وحاجتهم (عليهم السلام) إلى تلك المقتضيات والتراكيب التي استفاضت في خطبهم وتواتر ورودها، وما أنتجته من حركةٍ حجاجية وإقناعية، ونذكر منها على النحو الآتي:

أولًا: قال الإمام عليّ (عليه السلام): ((إنَّ الجهادَ بابٌ من أبواب الجنة))[1].

إنَّ المقتضى الذي أفاده النص ناجمٌ عن تأكيده (عليه السلام) بأداة التأكيد (إنَّ)، فالخبر الطلبي المؤكَّد بأداةٍ واحدةٍ يقتضي دائمًا تردُّد، وشكُّ المُخاطب فيما يحمله هذا النص من الخبر، وعلى هذا يكون مقتضى النص أنَّ المُخاطبين متردِّدين ومشكِّكين بما جاء في خبرِ النص، فمنطوق النص أنَّه: (متأكدٌ من كون الجهاد بابٌ من أبواب الجنة)، أما المقتضى الذي أفاده النص، فهو: (الجهاد بابٌ من أبواب الجنة)[2].

ثانيًا: قال الإمام زين العابدين (عليه السلام): ((إنَّ أرضاكم عند الله أسبغُكُم على عياله))[3].

فالمقتضى في هذا النص ناشئٌ من تأكيد الخطيب بأداة التأكيد (إنَّ)، فمنطوق النص هو أنَّه: (متأكدٌ من كون أرْضَاكُم عند الله أسبغُكُم على عِياله)، أما المقتضى الذي أفاده هذا النص، فهو: (أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله).

ثالثًا: قول الإمام الكاظم (عليه السلام) لهشام، وهو يَعِظه: ((إنَّ الله عزَّ وجل يُبغض الضَّحاك من غير عَجَب، والمشَّاءَ إلى غير إرَب))[4].

---

(١) ميزان الحكمة، للريشهري: ٨٥/٢.

(٢) ينظر: المقتضى التركيبي وأدواره الحجاجية، د. كمال الزماني: ٥٦٣- ٥٦٤.

(٣) ميزان الحكمة، للريشهري: ١٠٢/٤.

(٤) المصدر نفسه: ٣٢٢/٥.

إنَّ إدراجُه (عليه السلام) في خطابه لأحَّدِ عناصر التركيب اللسانية أفاد زيادة التَّوكيد، وهو بدوره يدعمُ مقتضى النص الخطابي، فمنطوق الخطاب هو: (متأكدٌ من كونِ الله تعالى يُبغض الضحَّاك من غير عَجَب، والمشَّاءَ إلى غير إرَب)، أما مقتضاه: (يبغضُ الله عزَّ وجل الضحَّاك من غير عَجَب، والمشَّاءَ إلى غير إرَب).

رابعًا: عن الإمام علي (عليه السلام) في الملاحم، قال: ((تفيضُ اللئام فيضًا، وتغيضُ الكِرام غيضًا، وكأنَّ أهل ذلك الزمان ذئابًا، وسلاطينه سِباعًا))[1].

وظَّف الإمام (عليه السلام) في خطابه المفعول المطلق لغرض توكيد الفعل[2]، بقوله: (فيضًا) و (غيضًا)، فمنطوق الكلام: (متأكِّد من كون اللئام تفيض)، و(متأكدٌ من كون الكرام تغيض)، أما مقتضى الكلام، فهو: (تفيض اللئام)، و(تغيض الكرام).

خامسًا: عن الإمام علي (عليه السلام) قوله: ((والله ما كتمتُ وشمة[3]، ولا كذبت كذبة))[4].

استعمل الإمام (عليه السلام) أسلوب القَسم، ويريد به تأكيد الكلام المُقسم عليه، قال سيبويه (ت: ١٨٠هـ): ((اعلم أنَّ القَسم توكيدٌ لكلامِك))[5]، فمنطوق الكلام هنا:

---

(١) ميزان الحكمة، للريشهري: ٨/٩ – ٩، وينظر: نهج البلاغة: ١٨٥/١.

(٢) ينظر: اللمع في العربية، لابن جني: ٤٨.

(٣) **الوشمة:** يقال: وشم اليد وشمًا، إذا غرزها بإبرة ثم ذرَّ عليها النؤور، واستوشمه، أي سأله أن يشمه، قال ابن السكيت (ت: ٢٤٤هـ): ما عصيته وشمة، أي كلمة، والمعنى: ما سترت علامة أو كلمةً تدل على سبيل الحق، ولكن عُميتم عنها. ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (وشم): ٢٠٥٢/٥، ، وبحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٢١٩/٥.

(٤) ميزان الحكمة، للريشهري: ٣٩٧/٨.

(٥) الكتاب: ١٠٤/٣.

(متأكدٌ من كوني لم أكتُم أيَّ كلمةٍ ولم أكذب)، أما مقتضاهُ، فهو: (لم أكتم أيَّ كلمةٍ ولم أكذب).

سادسًا: قال الإمام الحسين (عليه السلام) في مسيره إلى كربلاء: ((إنِّي لا أرى الموت إلّا سعادةً، ولا الحياةَ مع الظالمين إلاّ بَرما))[1].

أدرج الإمام (عليه السلام) عُنصرًا من عناصر التركيب اللسانية، وهو (إلا) بهدف تأكيد كلامه عن طريق قَصر الموصوف على الصفة، فالقصر ضربٌ من ضروب التوكيد، وهو ليس إلا تأكيدٌ للحكم على تأكيد[2]، وهذا التأكيد يدعم به الخطيب مقتضى النص الخطابي، وهو: (لا أرى الموت إلا سعادة، ولا الحياة مع الظالمين إلاّ برما).

سابعًا: عن الإمام علي (عليه السلام) من خطبته وهو يستنهض بها الناس حين ورد خبرُ غزو الأنبار، فلم ينهضوا: ((يا أشباه الرِّجال ولا رجال! حُلُوم الأطفال وعقول ربَّات الحِجال))[3].

استعمل الإمام (عليه السلام) في خطابه أسلوب البدل، كعنصرٍ من عناصر التركيب اللسانية، وأراد بالبدل هنا التأكيد لما فيه من التثنية والتكرير[4]، فمنطوق الخطاب، هو: (متأكدٌ من كونِكم أشباه رِجال)، أما مقتضاه، فهو: (أنتم أشباه رجال)[5].

---

(١) ميزان الحكمة، للريشهري: ٣٦٦/٩.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٩١، وتحقيق الفوائد الغياثية، لشمس الدين الكرماني: ٥٠١/١.

(٣) ميزان الحكمة، للريشهري: ٥٣٧/١٠، وينظر: نهج البلاغة: ٦٦/١.

(٤) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري: ١٥/١.

(٥) ينظر: المقتضى التركيبي وأدواره الحجاجية، د. كمال الزماني: ٥٦٧

ثامنًا: قال رسول الله (ﷺ): ((إنَّما أنا بشرٌ، ولعلَّ بعضَكم أنْ يكون ألحنَ بحجته من بعض، فمن قَضَيتُ له من حق أخيه، فإنَّما أقطع له قطعةٌ من نار))[1].

من العناصر اللسانية الأخرى، ما يسمى بتركيب البُنيات المسوَّرة، والتسوير مصطلحٌ يطلق على المحدِّدات الكمية والعددية، مثل: (كل) و(بعض) و(كثير) و(قليل) و(دائما) و(أحيانًا)، وغيرها، فقولنا: (حضرَ القليل) يقتضي: (عدم حُضور الكثير)[2]، ومن ذلك توظيفه (ﷺ) لهذه الأسوار والمحدِّدات بإدخاله كلمة (بعضكم) في حديثه، بقوله: (ولعلَّ بعضَكم أنْ يكون ألْحَن بحجته)، فمقتضى هذا الجزء من حديثه (ﷺ) هو: (أكثركم لا يكون ألحَنُ بحجَّته).

تاسعًا: عن الإمام علي (عليه السلام)، قال: ((اعلموا رحمكم الله أنَّكم في زمانٍ، القائل فيه بالحقِّ قليلٌ، واللسان عن الصدق كليلٌ، واللازم للحق ذليلٌ))[3].

استعمل الإمام (عليه السلام) في خطابه كلمة (قليل) وهي من المحدِّدات التي اقتضت بعد إدخالها في الخطاب معنى: (أنتم في زمانٍ القائل فيه بالباطل كثير).

عاشرًا: ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾[4]، كلامًا للإمام الحسن (عليه السلام) يقول فيه: **((اعلموا أن الله لم يخلقكم عبثًا وليس بتارككم سدى، كتب آجالكم وقسم بينكم معايشكم ليعرف كل ذي لب منزلته، وأن ما قدر له أصابه وما صرف عنه فلن يصيبه، قد كفاكم مؤونة الدنيا وفرغكم لعبادته وحثكم على الشكر وافترض عليكم**

---

(١) ميزان الحكمة، للريشهري: ٢٩٩/٨- ٣٠٠.

(٢) ينظر: المقتضى التركيبي وأدواره الحجاجية: ٥٦٩.

(٣) ميزان الحكمة، للريشهري: ٣١٨/٢، وينظر: ونهج البلاغة: ١١/٢٣.

(٤) سورة النبأ، الآية (٣١).

الذكر وأوصاكم بالتقوى وجعل التقوى منتهى رضاه، والتقوى باب كل توبة ورأس كل حكمة وشرف كل عمل، بالتقوى فاز من فاز من المتقين، قال الله تبارك وتعالى: إنَّ للمتقين مفازًا))[1].

لمعرفة دور الاقتضاء الحجاجي في الشاهد القرآني، وفي نص الخطبة يلزمنا تحليل عناصره وتفنيدها كما يأتي:

إنَّ التوكيد الاقتضائي المعجمي في الشاهد القرآني من هو توكيد فعل كلامي مباشر أدَّته الأداة (إنَّ)، وعَدَ الإخبار فعل كلامي مباشر حمله قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾، والوعد فعلٌ كلامي غير مباشر تضمنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾، حيث المنطوق إلى وعد يلتزم به المتكلم، وهو الله (ﷻ) تجاه المخَاطَب[2]، فحواه دخول المتقين الجنة ومنجاتهم من النار[3].

وجاء سير الحجاج في نص كلام الإمام الحسن (عليه السلام) في الحجج الآتية: الحجة الأولى: إنَّ الله لم يخلقكم عبثا، والحجة الثانية: وليس بتاركم سدى، والحجة الثالثة: كتب آجالكم، والحجة الرابعة: وقسم بينكم معايشكم، والحجة الخامسة: ليعرف كل ذي لب منزلته، والحجة السادسة: وأن ما قدر له أصابه، والحجة السابعة: وما صرف عنه فلن يصيبه، والحجة الثامنة: قد كفاكم مؤونة الدنيا، والحجة التاسعة: وفرغكم لعبادته، والحجة العاشرة: وحثكم على الشكر، والحجة الحادي عشر: وافترض عليكم الذكر، والحجة الثاني عشر: والتقوى باب كل توبة، والحجة الثالثة عشر: ورأس

---

(١) ميزان الحكمة، الريشهري: ٢٣٠/١١، وتحف العقول: ٢٣٢.

(٢) ينظر الشواهد القرآنية في كلام أصحاب الكساء (عليهم السلام)، أطروحة دكتوراه: ١١٩.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣٠٩/٨.

كل حكمة، والحجة الربع عشر: وشرف كل عمل، ويتضح من ذلك أنَّ النتيجة: التقوى فوز، والنتيجة الكلية: وأوصاكم بالتقوى[١].

حادي عشر: عن الإمام الصادق (عليه السلام): ((من كانت له حاجة إلى الله (عز وجل) فليبدأ بالصلاة على محمد وآله، ثم يسأل حاجته، ثم يختم بالصلاة على محمد وآل محمد، فإن الله (عز وجل) أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط إذا كانت الصلاة على محمد وآل محمد لا تحجب عنه))[٢].

فكنى الإمام (عليه السلام) عن عظم شأن محمد (صلى الله عليه وآله) وآل محمد، وجزيل مردود الصلاة عليهم، ومنها إجابة دعاء الداعي، ففي كناية الإمام الصادق ع غرض حجاجي، وهو إقناعنا بأهمية التمسك بالنبي محمد (صلى الله عليه وآله) وآله الأطهار (عليهم السلام) ومحبتهم، فتبقى الكناية رمزًا وهو ((ما أخفي من الكلام وأصله الصوت الخفي الذي لا يكاد يفهم))[٣].

وما يثبت حجاجيتها توخي الإمام (عليه السلام) مناسبة هذه الكناية لمقامٍ معين ومهم، وهو استجابة الدعاء هنا، فقدمها مقام الدليل القوي لدعواه[٤].

نَخلُص مما سبق إلى أنَّ المراد بالمُقتضى، هو ذلك المعنى المضمر والمستتر خلف الدلالة الحَرْفية للألفاظ، فالخطيبُ لا يصرِّح بها، وإنَّما هي مستقرَّةٌ في اللغة، ومتمكِّنةٌ في بُنيتها، ولا تَعَلُّقَ للبلاغة فيها، ويُتوصَّلُ إلى فهمها عن طريق العناصر اللسانية المشكلة للكلام.

---

(١) ينظر: الشواهد القرآنية في كلام أصحاب الكساء (عليهم السلام)، دراسة حجاجية: ص١٢١.

(٢) ميزان الحكمة، الريشهري: ٣/١٩٠، ومكارم الأخلاق، للطبرسي: ٢٧٩.

(٣) نقد النثر، لقدامة بن جعفر: ٦١.

(٤) ينظر: الحجاج في روايات أهل البيت (عليهم السلام) في كتاب أصول الكافي، للكليني: ١٥٠.

إنَّ ركونَ أئمةُ أهل البيت (عليهم السلام) إلى القوة الحِجاجية، الكامنةُ خلف هذه الاقتضاءات التركيبية، التي نجمتْ عن استعمال مختلف العناصر اللسانية، كالتوكيد والقسم والقصر والبدل، وغيرها، وإدخالها في خطاباتهم، وإنتاج مقتضياتٍ معينة، وتوظيفها بمواجهةِ تشكيكٍ أو إنكارٍ من المُخاطبين، ومساهمتها في تشكيل قناعاتٍ جديدة، تضمنُ انفتاحهم على أفق الخطاب، والقناعة والتسليم لمتبنَّياته الحجاجية.

إنَّ الطاقة الحجاجية للتراكيب الإنشائية، المستمدَّة من دلالة مقتضياتها اللفظية، في خطب وأقوال أئمةُ أهل البيت (عليهم السلام) أسْهَمتْ بالنهوض بوظائف حجاجية، نعرض لها في المطالب الآتية:

المطلب الأول: أسلوب الاستفهام وأثره الحِجاجي.

في هذا المطلب نتناول البعد الحجاجي لأسلوب الاستفهام الوارد في خطاب أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، عن طريق ما تضيفه أحرف الاستفهام وأسمائها وظروفها التي ضمَّنوها خطابهم في بُنية الألفاظ والكلمات من قِيمةٍ حجاجية واضحة المعالم، كما يَنتجُ عن الاستفهام معانٍ عِدَّة، تأخذ مسمياتها تبعًا للسياق الذي يَرِدُ فيه الاستفهام، والهدف الذي يقصده، ولمَّا كان أهل البيت (عليهم السلام) قد أكثروا من استعمال هذا الأسلوب في خِطاباتهم، وعالَجوا فيه حِجاجهم، حتى صار سمةً مائزةً لهم.

.

الاستفهام لغةً: (الفهم) علمُ الشيء، وطلب فهم الشيء[١].

أما في الاصطلاح: قال ابن يعيش (ت: ٦٤٣هـ): (أستفهمُ) عبارة عن طلب الفهم[٢]، واسْتَفْهَمْتُه: سألته الإفهام، والاستفهام هو طلبُ حصول صورة الشيء في الذهن، أو أنْ يُستفهمَ عن شيءٍ لم يكن معلومًا من قَبْلُ بإحدى أدوات الاستفهام[٣].

وللاستفهام أدوات كثيرة، تأتي في طليعتها حروف الاستفهام الثلاث: (الهمزة) أصالةً، وهي أمُّ باب الاستفهام، و(أَمْ) و(هل) وتأتي نيابة عن الهمزة؛ لأنَّ (هل) في أصل الوضع تأتي بمعنى (قد)، كقوله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ ﴾[٤]، أي: (قد أتى)، وما عدا ذلك فأسماءٌ وظروفٌ أقيمتْ مقامها، فالأسماء هي: (مَنْ، ومَا، وكم، وكيف) والظروف هي: (أين، وأنَّى، ومتى، وأيّ حين، وأيّان، أي)[٥].

ذهب النحاة إلى أنَّ الاستفهام له الصدارة في الكلام: قال ابن يعيش (ت: ٦٤٣هـ): ((وللاستفهام صدر الكلام، لا يجوز تقديم شيءٍ مما في حيزه عليه))[٦]؛ لأنَّها إذا تقدَّم عليها شيءٌ من الجملة فقدتْ الدلالة على الاستفهام، وتقديم أدوات الاستفهام ووضعها في صدر الكلام يعينُ على إفادة معنى الاستفهام فيها، وهو الفارق الوحيد بين كونها مُستَعمَلة أداة للاستفهام، وبين كونها مستعملةٌ ظرفًا مثلاً، ويأتي إلزام

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، مادة (فهم): ٤٥٧/٤، ومفتاح العلوم: ١١٤، ونهاية الأرب في فنون الأدب: ٦٩/٧.

(٢) شرح المفصل، لابن يعيش: ٤٥٣/٤.

(٣) ينظر: أدب الكتاب، لابن قتيبة: ٤٦٨، والتعريفات، للجرجاني: ١٨.

(٤) سورة الانسان، من الآية (١).

(٥) ينظر: أسرار العربية، للأنباري: ٢٦٧، وأساليب المعاني في القرآن، جعفر الحسيني: ٦٦.

(٦) شرح المفصل، لابن يعيش: ١٠٤/٥.

النحاة أدوات الاستفهام صدر الكلام نابعًا من ملاحظتهم الدقيقة لتعدد المعنى الوظيفي للأدوات في الكلام[١].

قد يَرد الاستفهام على المعنى الأصلي الذي وضع له ابتداءً، وهو طلب الفهم، كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾[٢]، وقد يخرج عن أصل الوضع إلى معاني أخرى تُفهم من سِياق الكلام، ومن ذلك الإنكار، والاستفهام حينئذ يؤدي معنى (النفي) وما بعده منفي، ويكون معناه في الماضي معنى لم يكن، وفي المستقبل معنى لا يكون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾[٣]، ولعل السرَّ في جمال أسلوب الاستفهام هنا، هو أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابًا يحتاج إلى تفكير، ولمَّا كان المسؤول يُجيبُ بعد تفكير ورويِّة عن هذه الأسئلة بالنفي، كان في توجيه السؤال إليه حَملاً له على الإقرار بهذا النفي[٤].

وبُغية الكشف عن أدوات الاستفهام التي حَملت معنىً حِجاجيًا في خطاب أهل البيت (عليهم السلام)، مما أورده محمد الريشهري في كتابه (ميزان الحكمة) نذكر منها، على النحو الآتي:

أولاً: قال الإمام علي (عليه السلام): ((أيُّها الذَّام للدنيا، المغتر بغرورها، المنخدع بأباطيلها،

---

(١) ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، د. قيس الأوسي: ٣١٠-٣١١.

(٢) سورة الأعراف، من الآية (١٨٧).

(٣) سورة الشعراء، الآية (١١١).

(٤) ينظر: من بلاغة القرآن، أحمد البدوي: ١٢٦.

أتغترُّ بالدنيا ثم تذمها! أنت المتجرِّم عليها أمْ هي المتجرِّمة عليك! متى استهوتك؟ أمْ متى غرَّتك؟))[1].

إنَّ المتأمل في الاستفهام بالهمزة، في قوله: (**أتغترُّ**) يمكن تعويضه بنفي، أي: (لا تغتر) فيحوَّل الملفوظ إلى: (لا تغترَّ بالدنيا ثم تذمها)، هنا يمكن للملفوظ الاستفهامي أنْ يؤدي أثرًا حجاجيًا يَدْعمُ النتيجة المنشُودة، وهي: (أنَّ هذه الدنيا التي تذمونها، أنتم من اغتررتم بها فخدعتكم).

وما ورد في المثال السابق لا يُلْتَفتْ إلى الاستفهام في ذاته، ضمن المنظور التداولي، وإنْ كان هو الصورة الظاهرية للملفوظ، إلا أنَّ المُعتبَر فيه هو علاقة مضمون التواصل الذي استُعمل فيه الاستفهام، إذ يعملُ على إعطاء قيمة إنجازيةً حجاجيةً، ارتدَّ فيه المعنى التداولي إلى فعل النفي الذي يؤدي بالمتلقي إلى الإذعان والانصياع تحت وطأتهِ وسلطته الحجاجية.

ثانيًا: عن الإمام الكاظم (عليه السلام)، وقد سمع رجلاً يتمنى الموت، قال: ((هل بينك وبين الله قرابَة يُحابيك لها؟ قال: لا، قال: فهل لك حسنات قدمتها تَزيد على سيئاتك؟ قال: لا، قال: فأنت إذًا تتمنى هلاك الأبد!))[2].

يبدُ للوهلة الأولى في هذا النص الخطابي الملفوظ، وما اشتمل عليه من أسئلة استفهامية أنَّ مناطها هو الاستفسار والاستعلام من المُتكلم، كما في قوله (عليه السلام): (**هل بينك وبين الله قرابة يحابيك لها؟**)، و(**فهل لك حسنات قدمتها تزيد على سيئاتك؟**)،

---

(١) ميزان الحكمة، الريشهري: ٢٢٠/٣، وينظر: نهج البلاغة: ٢١/٤.

(٢) ميزان الحكمة، الريشهري: ٣٥٨/٩، وينظر: كشف الغمة في معرفة الأئمة، علي بن عيسى الإربلي: ٢٤٧/٣.

وأنَّ الجواب لا يَعْدُ أنْ يكونَ نفيًا أو إثباتًا، أي: بـ (نعم) أو (لا)، إلا أنَّ سياق الكلام تخلَّص من ظاهرِهِ الاستفهامي إلى حالة النفي، فالمعنى المستتر خلف أسلوب الاستفهام هو: (ليس بينك وبين الله قرابةٌ يُحابِيك لأجلها)، و(ليس لك حسناتٌ تزيد على سيئاتك فتقدمها)، فاستعمال الاستفهام في هذا النص أفاد معنى التحقيق والتقرير، كما أنَّه أدى دورًا مساندًا للدَّفق الحجاجي، وأعطى زخمًا تأثيرًا في المتلقي، فكانَ أظهَرُ دلالَةٍ على الإلزام، وأشدُّ نفيًا مما لو جاء بأسلوب النفي ابتداءً.

ثالثًا: يقول الإمام الحسين (عليه السلام): ((إلهي ترددي في الآثار يوجب بُعد المَزار، فاجمعني عليك بخدمةٍ تُوصلني إليك، كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقرٌ إليك؟ أيكونُ لغيرك من الظهور ما ليس لك؟ حتى يكون هو المظهر لك، متى غِبتَ حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليك؟ بك أستدلُّ عليك، فاهدني بنورِك إليك))[1].

حَشَدَ الإمام الحسين (عليه السلام) في مناجاته لربِّه سبحانه استفهامات كثيرة، في قوله: **(كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقرٌ إليك؟)**، و **(أيكونُ لغيرك من الظهور ما ليس لك؟)**، و **(متى غِبتَ حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليك؟)**.

إنَّ للاستفهام معنيين، منها ما هو حقيقي، قائمٌ على الأصل اللغوي، يكون ((ظاهره موافقًا لباطنه، كسؤال عما لا تعلمه، فتقول: ما عندك؟ ومنْ رأيتَ؟))[2]، أي: يراد به ((طلب فهم الشيء))[3]؛ لأنَّ الفهم: ((صورة ذهنيةٌ تتعلق أحيانًا بمفرد شخص، أو شيءٍ أو غيرهما، وتتعلق أحيانًا بنسبة، أو بحكم من الأحكام، سواء أكانت النسبة

---

(١) ميزان الحكمة، الريشهري: ٢٠٦/٦.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لابن فارس: ١٣٥.

(٣) شرح المفصل، لابن يعيش: ٤٥٣/٤.

قائمة على يقين أم ظن أم على شك))[١]، أما المعنى الآخر للاستفهام فغير حقيقي (مجازي)، أي يخرج عن معنى الاستفهام إلى معاني أخرى يستلزمها الكلام، وهذا هو الذي عناه ابن هشام (ت: ٧٦١هـ) بقوله ((وقد تخرج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي فَترد لثمانية معَان))[٢]، وهذا المعنى الأخير هو الذي قصده الإمام، فهو أراد الإتيان بمعنى جديد مستفاد من دلالة جملة الاستفهام الظاهرة[٣].

على الرغم من أنَّ الخطاب جاء في سياق الدعاء ومناجاة الخالق عزَّ وجل، إلا أنَّ لكلِّ خطابٍ، كما هو معلوم هدفًا حجاجيًا، ومتلقيًا مقصودًا، وهو قطعًا ليس الخالق سبحانه، وإنما المقصود به مَنْ يصل إليه الخطاب من الناس، فيخرج من الاستفهام إلى التعظيم والتفخيم، والخروج عن الأصل يكون عن طريق المجاز، وهو ما يُعرفُ بالاتساع الدلالي.

رابعًا: يقول الإمام علي (عليه السلام): ((أينَ العمالقة وأبناء العمالقة؟ أينَ الفراعنة وأبناء الفراعنة؟ أينَ أصحاب مدائن الرَّسِ الذين قتلوا النبيين، وأطفؤوا سُنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين؟))[٤].

إنَّ الاستفهام الوارد في النص الخطابي، الذي كرَّر السؤال بلفظ **(أينَ)**، وهي على المعنى الحقيقي ظرفٌ للسؤال عن المكان[٥]، ولكنَّهُ في هذا السياق لا يُعدُّ ملفوظًا

---

(١) في النحو العربي نقدٌ وتوجيه، د. مهدي المخزومي: ٢٦٤.

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام: ٢٤.

(٣) ينظر: الملفوظات في خطب الإمام الحسن (عليه السلام) دراسةٌ في هدي اللسانيات، د. ظافر الجياشي: ٦٤.

(٤) ميزان الحكمة، الريشهري: ١٦/٢.

(٥) ينظر: أسرار العربية، كمال الدين الأنباري: ٢٦٨.

استفهاميًا خالصًا، وإنَّما يَحملُ بين جنباته قِيمة حِجاجية إنجازية.

تميَّز طرح السؤال أو الاستفهام في خطاب الإمام (عليه السلام) عن بعض الأشكَال الخطابية الأخرى، التي تتخذ الحِجاج وسيلة لبلوغ الهدف، فالغاية من الاستفهام هنا، هو التنبيه على ظلال المُخاطبين في نُزوعِهم إلى الطغيان والجبروت، وليس المقصود بالاستفهام عن مكان العمالقة والفراعنة وأصحاب الرَّس وأبناؤهم، إذ المقصود هو تقرير حالةٍ جديدة، إذ لا مكان للعمالقة ولا لأبنائهم، ولا للفراعنة ولا لأبنائهم، ولا مكان لأصحاب مدائن الرسِّ في هذا العالم، فقد أهلكهم الله تعالى وأزال ملكهم، بسبب ظلمهم وطغيانهم، على الرغم من بلوغهم الغاية في السلطة والقوة والجبروت.

خامسًا: عن الإمام عليٍّ (عليه السلام) قال: ((كمْ مِنْ دمٍ سَفَكه فَم))، وعنه (عليه السلام) أيضًا: ((كمْ مِنْ إنسانٍ أهلَكَهُ لِسان))[1].

جاء الاستفهام في هذين النصين بالأداة (كم)، ومما جاء في وصفها أنَّها اسمٌ غامضٌ يُكنى به عن عدد مبهم، تُستخدم ((للسؤال عن العدد))[2]، فهو غير واضح المعنى تمامًا، بل يحتاج إلى كلام بعده لتوضيحه وتحديده، والأداة (كم) لها الصدارة في الكلام، وهي على نوعين: إما أنْ تكون استفهامية، أو أن تكون خبرية، وهذه الأخيرة يسميها بعضهم ((كم التكثيرية))[3].

وتتميز (كم) الخبرية أنها تختصُّ بالزمن الماضي ، ولما كان الكلام الذي

(١) ميزان الحكمة، الريشهري: ١٠٥/٩.

(٢) أسرار العربية: ٢٦٨.

(٣) المدارس النحوية، شوقي ضيف: ٢٠٩.

تُستعمل فيه (كم) الخبرية هو خبري، فهذا يعني أنَّها لا تحتاج جوابًا، فهي جملة أسلوبها خبري، أي يحتمل التصديق والتكذيب فيها[١].

والاستفهام الإخباري يُراد به التكثير، وعلى هذا فمعنى النص: (ما أكثر الدماء التي سفكها كلام الفم)، و(ما أكثر الناس الذين أهلكهم ما نطق به اللسان).

سادسًا: عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) قوله ((لرجل قال له: إنِّي ضعيفُ العملِ، قليل الصيام، ولكنِّي أرجو أن لا آكل إلا حلالًا، قال: فقال له: أيُّ الاجتهاد أفضل من عفَّةِ بطنٍ وفرج؟))[٢].

استفهام الإمام (عليه السلام) في قوله: **(أيُّ الاجتهاد أفضل مِنْ عِفَّة بطن وفرج؟)**، يَخْرجُ عن معنى (طلب الفهم والاستعلام) إلى معنىً آخر يُفهم من سِياق الكلام، وأراد به هنا (التعظيمُ) لشأن العفَّة ورفيع منزلتها.

فالعفَّة هي: النزاهة والصيانة عن المحارم والمآثم، فأمَّا العفة عن المحارم فتكون بضبط الفرج عن الحرام، وكفُّ اللسان عن الأعراض، وأمَّا العفة عن المآثم، فتكون بالكفِّ عن المُجاهرة بالظلم، وبزجر النفس عن الإسرار بالخيانة[٣].

وهذا المعنى يُفهم من قول الإمام عليٍّ (عليه السلام) في العفَّة وثمرتها، إذ يقول: **((ثمرة العفة القناعة))**، وقوله أيضًا: **((ثمرة العفة الصيانة))**[٤].

وكأنَّ الإمام الباقر (عليه السلام) يُشير في خطابه إلى حديث جدِّه النبي محمد (صلى الله عليه وآله)

.

---

(١) ينظر: النحو الوافي، عباس حسن: ٥٧٦/٤.

(٢) ميزان الحكمة، الريشهري: ٣٤٧/٦، وينظر: أصول الكافي: ٥٦/٢- ٥٧.

(٣) ينظر: أدب الدنيا والدين، للماوردي: ٣٢١- ٣٢٤.

(٤) ميزان الحكمة، الريشهري: ٣٤٨/٦.

في قوله: ((**أحبُّ العفاف إلى الله تعالى عَفافُ الفرج والبطن**))[1]، إلا أنَّه أورده بصيغة الاستفهام ذي الفاعلية الحجاجية الأكثر تأثيرًا في المتلقي؛ وذلك لحاجته (عليه السلام) لهذا الأسلوب، كونه يعيش في زمانٍ يحتاج فيه إلى تنوع الأساليب البلاغية، مما يدعم فيه حِجاجه.

وخُلاصة القول أنَّ أسلوب الاستفهام من الأساليب النحوية التي أكثرَ العربُ من استعماله في كلامهم، وسار عليه أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في خطابهم، متمثِّلين للغرض الحِجاجي الذي يؤديه أسلوب الاستفهام، لما له من قوةٍ حجاجية ناجعة، فقد أتاح لهم أفُقًا بلاغيًا رحبًا في معالجة مقاصدهم التبليغية والحجاجية، فهو لا يقتصر على طلب الجواب عن أمرٍ أو الاستخبار عنه، إنَّما ينتقل بالمعنى إلى سياقاتٍ أخرى كالتعجب والتقرير والإنكار والتعظيم وغيرها، وفيما ذكرناه من الأمثلة السابقة من خطابات وأقوال بعض أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وكيفية توظيفهم للمعاني والمقاصد الضمنية باعتبارها أعلى مقصديةً وأبلغُ حِجاجًا من المعاني الحقيقية، وأكثر تأثيرًا في التبليغ والإقناع.

المطلب الثاني: أسلوبا الأمر والنهي وأثرهما الحِجاجي في ميزان الحكمة.

إنَّ أسلوب الأمر والنهي من أكثر الأساليب الكلامية استعمالاً وتداولاً في أقوال أئمة أهل البيت (عليهم السلام)؛ لأنَّ الأمرَ والنهي من صُلبِ واجبات الدعاة إلى الله تعالى تجاه هذا الدِّين، وهي من النصيحة الواجبة فيه، فإنَّهم إذا رأوا من الناس ابتعادًا عن الحَسَنِ من الأفعال، أو من الخير الذي تطمئن إليه النفوس أَمَروا بالأخذ به، وإذا رأَوا من الناس اقترافًا لما حرَّمه الشرع أو كَرِهَهُ، نهَوا عن الإتيان به، كما أنَّ مدار الدِّين قائم على الأمر والنهي.

---

(١) أدب الدنيا والدين، الماوردي: ٣٢١.

التعريف بأسلوب الأمر والنهي:

الأمر لغةً: الأمر بالفتح: معروف، وهو نقيض النهي، والأمر أيضًا: كل حَدثٍ يحدث وكلُّ قصة تقع، والأمر: النَّمَاء والبركة بفتح الميم، فأمَّا الواحد من الأمور، فقولهم: هذا أمرٌ رضيته، وأمر لا أرضاه[١].

الأمر اصطلاحًا: هو طلبُ حصول الفعل من المُخاطب لم يكن حاصِلاً قبل الطلب على سبيل الاستعلاء والإلزام، والأمر طلب إيجابي؛ لأنه يطلب إنجازُ أمرٍ ما، ويقصد بالاستعلاء أنْ ينظر الآمر لنفسه على أنَّه أعلى منزلة ممن يُخاطبه أو يُوجه الأمر إليه، سواء أكان أعلى منزلة منه في الواقع أم لا[٢]، ولأسلوب الأمر أربع صيغ:

١. فعل الأمر، وله علامة مركبةٌ من شيئين يعرف بهما، الأولى: دلَالَته على الطَّلب، والثانية: قبوله يَاء المخاطبة[٣]، كقوله تعالى: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[٥].

٢. المضارع المجزوم بلام الأمر، ((وهو لام يطلب به الفعل))[٦] ، كقوله تعالى:

.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، مادة (أمر): ١٣٧/١، ولسان العرب، مادة (أمر): ٢٦/٤، واتفاق المباني وافتراق المعاني: ٢٣٢.

(٢) ينظر: علم المعاني: ٧٥.

(٣) ينظر: شرح قطر الندى وبل الصدى، لابن هشام: ٣٠، وشرح شذور الذهب: ١٥٥/١.

(٤) سورة مريم، من الآية (١٢).

(٥) سورة آل عمران، الآية (٤٣).

(٦) التعريفات، للشريف الجرجاني: ١٩١.

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾[1].

٣. اسم فعل الأمر، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾[2].

٤. المصدر النائب على فعل الأمر، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾[3]، ((فالمصدر المأمور به يكون نكرةً، وبالألف واللام، ومضافًا كل ذلك مطَّردٌ في الأمر))[4].

النهي لغةً: طلب الكفِّ عن الفعل، قال ابن منظور (ت: ٧١١هـ): ((النهي: خلاف الأمر، نهاه ينهاه نهيًا فانتهى، وتناهى: كفَّ))[5].

النهي اصطلاحًا: النهي: نفي الأمر، يقول سيبويه (ت: ١٨٠هـ): ((إنَّ (لا تَضْرِبْ) نفيٌ لقوله: (اضْرِبْ)، و(لم أَضرب) نفيٌ (لِضربتُ)))[6]، ويؤيد ابن السراج (ت: ٣١٦هـ) ذلك بقوله: ((إذا قلت: قُمْ إنّما تأمره بأن يكون منه قيام، فإذا نهيت فقلت: لا تَقم فقد أردت منه نفي ذلكَ، فكما أنَّ الأمر يراد به الإيجاب فكذلك النهي يُراد به النفي))[7]، ويرى البلاغيون أنَّ النهي هو طلب المتكلم من المخاطَب الكفَّ عن الشيء

---

(١) سورة الطلاق، من الآية (٧).

(٢) سورة المائدة، من الآية (١٠٥).

(٣) سورة محمد، من الآية (٤).

(٤) المقتضب، للمبرد: ٢١٦/٣.

(٥) لسان العرب، مادة (نهي): ٣٤٣/١٥.

(٦) الكتاب: ١٣٦/١.

(٧) الأصول في النحو: ١٥٧/٢.

الشيء على وجه الاستعلاء مع الإلزام، فهو طلبٌ سلبي؛ لأنه يطلب عدم إنجاز شيء ما، ويكون لمن هو أقلُّ شأنا من المتكلم، فمتى وردت صيغة النهي أفادت الحظر والتحريم على الفور[١].

إنَّ المتأمل في تعريف الأمر والنهي، يتلمَّس مواطن الاتفاق والاختلاف بينهما، فهما يتفقان من حيث اعتبار الاستعلاء، وتعلقهما بالغير، فلا يمكن أنْ يكون الإنسان آمرًا لنفسه أو ناهيًا لها، وأنَّهما مقصودان من المتكلم، ومريدان لهما، أما مواطن الاختلاف، فإنهما يختلفان في الصيغة؛ لأنَّ كل واحد منهما مختصٌ بصيغةٍ تخالفُ الآخر، ويختلفان في الدلالة، إذ إنَّ الأمر دالٌ على الطلب، والنهيُ دالٌ على المنع، ويختلفان أيضًا في أنَّ الأمر لابد فيه من إرادة مأمورة، وأنَّ النهي لابدَّ فيه من كراهية منهية[٢].

إنَّ لأسلوب الأمر والنهي قوة إنجازية، وطاقة حِجاجية إقناعية تؤدي إلى تسليم المُخاطب بفحوى الخطاب، أو إحداث تغييرٍ في المعتقدات أو المواقف، ولا يكون ذلك إلا عن طريق فهم الاستعمالات الحقيقية والمجازية لأساليب الأمر والنهي في الخطاب، من أجل الارتقاء بالأهداف السامية التي يقصدها الخطيب.

وتُستعمل صيغ الأمر في غير هذا الأصل الذي وُضعت له، فتفيد أغراضًا بلاغية كثيرة، كالإباحة، أو الدعاء، أو التمني، أو الحث والإثارة، أو الاستمرار والدوام على تحقيق الفعل، إلى غير ذلك من المعاني التي تفيدها هذه الصيغ بمعونة دلالة السياق وقرائن الأحوال المصاحبة[٣]، وكذلك صيغ النهي، فإنَّها تُستعمل في غير

---

(١) ينظر: علوم البلاغة، البديع والبيان والمعاني: ٢٨٩.

(٢) ينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ١٥٧/٣.

(٣) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش: ٢٨٩/٤، ومفتاح العلوم: ٣١٨.

الأصل الذي وضعت له، وهو طلب الكفِّ عن الفعل، فتفيد أغراضًا بلاغية أخرى، كالدعاء، والالتماس، والنصح، والإرشاد، والتوبيخ، والتهديد، وغير ذلك من المعاني المستفادة من دلالة السياق والقرائن المصاحبة لها[1].

وعن طريق استقرائنا لخطابات وأقوال أهل البيت (عليهم السلام) في كتاب (ميزان الحكمة) للريشهري، لمسنا كثرة استنادهم على أسلوب الأمر والنهي، والذي يَعْنِينا في هذا الباب هو المعاني البلاغية التي أفادها هذا الأسلوب، في خطب أهل البيت (عليهم السلام) وتوظيفها الحجاجي، ونذكر منها على النحو الآتي:

أولاً: قال الإمام عليٌّ (عليه السلام): ((تعاهدوا أمر الصلاة، وحافظوا عليها، واستكثروا منها، وتقربوا بها، فإنها كانت على المؤمنين كتابًا موقوتا))[2].

استعمل الإمام (عليه السلام) أسلوب الأمر في خطابه هذا، إلا أنَّه أفاد معنى النَّدْب ودلَّ عليه، وقد كثرَ استعماله لهذا الأسلوب مع مخاطبيه، فلا غروَ في ذلك؛ لأنَّه (عليه السلام) مُرشدُهم إلى ما يُصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة، ففي هذا الخطاب يَنْدُبُهم (عليه السلام) إلى تعاهد الصلاة، والمحافظة على المفروضة منها، والإكثار من نوافلها؛ لأنَّها عَمُود الدِّين.

ثانيًا: وعنه (عليه السلام) قوله أيضًا: ((فليعمل العامل منكم في أيام مهله قبل إرهاق أجله، وليتزود من دار ظعنه لدار إقامته))[3].

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٣٢٠، والبلاغة (٢) المعاني: ٣٥٤.

(٢) ميزان الحكمة، الريشهري: ٢٧١/٥.

(٣) المصدر نفسه: ٣٥٢/٩.

في هذا الخطاب يندُب الإمام (عليه السلام) المسلمين إلى اغتنام الحياة، وفرصة الإمهال وتّساعُ الأجل، للتزود للآخرة التي هي دار الإقامة بالعمل الصالح، فالأمر في قوله: (فليعمل) و(ليتزوَّد) خرج من الإلزام إلى الندب.

ثالثًا: عن الإمام علي (عليه السلام)، قوله لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل: ((تزول الجبال ولا تزل، عُضَّ على ناجِذك، أَعِرِ الله جُمجمتك، تِد في الأرض قدمك، إرم ببصرك أقصى القوم، وغضَّ بصرك، واعلم أنَّ النصر من عند الله سبحانه))[1].

قد يخرج الأمر عن المعنى الحقيقي الذي وُضِع لأجله إلى معنى دلالي آخر، كما في هذا النص الخطابي، فقد خرج إلى (إرادة النصح والإرشاد)، إذ قدَّم الإمام (عليه السلام) ارشاداته ونصائحه وتعليماته الحربية والقتالية لابنه محمد بن الحنفية، لمَّا أعطاه الراية يوم الجمل، وذلك النصح والإرشاد ناشئٌ من خبرة الإمام (عليه السلام) المتراكمة من خوضه الحروب[2].

رابعًا: عن الإمام علي (عليه السلام) قال: ((اللهمَّ فاسقنا غيثك، ولا تجعلنا من القانطين))[3].

في هذا النص يسأل الإمام (عليه السلام) من ربِّه نزول الغيث، الذي فيه حياة العباد والبلاد، وقد خرج الأمر هنا إلى معنى (الدعاء)، قال سيبويه: ((واعلم أَنَّ الدُعاءَ بمنزلة الأمر والنهى، وإنَّما قيل: (دعاءٌ)؛ لأنه استُعْظِمَ أَنْ يُقال: أمرٌ أو نَهْيٌ، وذلك قولك: زيدٌ

---

(١) ميزان الحكمة، الريشهري: ٣٤٦/١١.

(٢) ينظر: صيغ الأمر ودلالاتها المختلفة في خطب نهج البلاغة: ٦٦٢.

(٣) ميزان الحكمة، الريشهري: ٣٥٧/٨.

فاغفر ذنبه))[١]، وهو طلب الفعل على سبيل التضرُّع، ويكون من الأدنى إلى الأعلى منزلةً، والصحيح أنْ لا يكون إلا من العبد إلى ربه[٢].

خامسًا: وعنه (عليه السلام) قوله أيضًا: ((فاتقوا الله الذي أنتم بعينه، ونواصيكم بيده، وتقلُّبَكُم في قبضته))[٣]، وقوله أيضًا: ((فليكْفُف مَن عَلِمَ منكم عَيبَ غيره، لِمَا يعلمُ من عَيبِ نفسه))[٤].

خرج أسلوب الأمر في هذين النصين عن دِلالته الحقيقية التي وضع لها ابتداءً إلى معاني ودلالات أخرى مُستفادةٌ من سياقه عن طريق المجاز، فقد أفاد الأمر هنا معنى (التحذير)، ففي النص الأول يحذِّر (عليه السلام) المُخاطبين من مغبَّة معصية الله تعالى، فهو مطلعٌ على أعمالهم، ويعلم ما أسرُّوا، فلا يخفى عليه منها شيء، وَكَّلَ بذلك حفظةً كرامًا، لا يُسقطون حقًا، ولا يثبتون باطلاً، وهو قادر عليهم وقاهرٌ لهم[٥]، وفي النص الثاني، يحذرُّهم (عليه السلام) من الغِيبة وإذاعة عُيوب الناس، وأنْ يذكروا موضعَ سترِ الله تعالى عليهم من ذنوبهم، مما هو أعظم من الذنب الذي عابوا به غيرهم[٦].

---

(١) الكتاب: ١٤٢/١.

(٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٨٦/٣، والبلاغة العربية: ٢٩١/١.

(٣) ميزان الحكمة، الريشهري: ٢٧٩/١١.

(٤) المصدر نفسه: ٢٥٧/٧.

(٥) ينظر: شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد: ٤/١٨٣.

(٦) ينظر: المصدر نفسه: ١/٩٥.

سادسًا: عن الإمام الصادق (عليه السلام)، لما ذَكَر رجلٌ عنده الأغنياء ووقع فيهم، قال: ((اسْكُت! فإنَّ الغني إذا كان وَصُولًا لرحِمه، بارًا بإخوانه، أضعف الله له الأجر ضِعفين))[1].

دلَّ الأمر هنا على معنى (الإهانةُ والتحقير)، قال السبكي (ت: ٧٧٣هـ): ((ومنها: الاحتقار والتقليل كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾[2] فهو احتقار للدنيا))[3] ففي قول الإمام (عليه السلام): (اسكُت) احتقار للمخاطَب وإهانةٌ له، فقد عَدِلَ الإمام (عليه السلام) عن محاورته إلى إهانته بهذه اللفظة.

سابعًا: قال الإمام الصادق (عليه السلام): ((لا تدع بسم الله الرحمن الرحيم، وإنْ كان بعده شِعْرٌ))[4].

ينهى الإمام (عليه السلام) في خطابه عن ترك البسلمة في بداية كل مقروءٍ أو مكتوبٍ، مهما كان نوعه أو هيئته، لما للبسملة من أهمية، فهي مفتاح القرآن، وأول ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ، وأول ما أمر الله تعالى به جبريل (عليه السلام) أنْ يقرئه النبي (صلى الله عليه وآله): ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[5]، ((واتفق أكثر الفقهاء على أنَّ التسمية مشروعة لكل لكل أمر ذي بال، عبادة أو غيرها، فتُقال عند البدء في تلاوة القرآن الكريم والأذكار، وركوب سفينة ودابة، ودخول المنزل ومسجد، أو خروج منه، وعند إيقاد مصباح أو

---

(١) ميزان الحكمة، الريشهري: ٢٥٧/٧.

(٢) سورة طه، من الآية (١٣١).

(٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: ٤٧١/١.

(٤) ميزان الحكمة، الريشهري: ٣٦٥/٤

(٥) سورة العلق، الآية (١).

إطفائه))[1]، لكن هذا النهي خرج في دلالته إلى (التنزيه)، قال المازندراني: ((قال أبو عبد الله (عليه السلام) (لا تدع بسم الله الرحمن الرحيم وإنْ كانَ بعده شعر)، سواءٌ كتبته أو قرأته، والنهيُ للتنزيه الدال على الاستحباب))[2].

ثامنًا: عن الإمام علي (عليه السلام) قال: ((اقدِموا على الله مظلومين، ولا تُقدموا عليه ظالمين))[3].

اشتمل قول الإمام (عليه السلام) على الأمر: (أقدموا)، والنهي: (ولا تقدموا)، وكلا الأسلوبين خرج عن معناه الأصلي إلى إفادة معنى (النصح والإرشاد)، وإنَّما جاء به على هذه الصيغة؛ رغبةً في الاستجابة والامتثال[4].

تاسعًا: قال الإمام علي (عليه السلام): ((لا تسألوا فيها فوق الكَفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البَلاغ))[5].

والكفاف من الرزق قدر القوت، وهو ما كفَّ عن الناس، أي: أغنى، والبلاغ والبلغة من العيش ما يُتَبَلَّغُ به، أي: لا تطلبوا في هذه الدنيا أكثر من قدر ما تتقوتون به، أو ما تبلغون به العيش[6]، وقد خرج النهي في قوله (عليه السلام): (لا تسألوا) و(لا تطلبوا) عن المعنى الذي وضع له على الحقيقة، إلى معنى (النصح والإرشاد).

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية: ٩٢/٨.

(٢) شرح أصول الكافي، للمازندراني: ٢١٤/١٨.

(٣) ميزان الحكمة، الريشهري: ٣١/٦.

(٤) ينظر: البلاغة ٢ – المعاني – جامعة المدينة: ٣٦٧، وعلم المعاني، عبد العزيز عتيق: ٧٨.

(٥) ميزان الحكمة، الريشهري: ٢١٥/٣.

(٦) ينظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ١٥٢/٣

تجلَّت القدرة التعبيرية عند أهل البيت (عليهم السلام) في تمكنهم من استعمال أدوات اللغة، عن طريق التنويع في إيراد الأغراض البلاغية، ذات القِيَم الجمالية في خطابهم الحجاجي، وأسلوب الأمر والنهي من الصيغ الإنشائية التي تتميز بقوتها وتفوقها على الصيغ الخبرية؛ لما لها من أثرٍ في تجديد نشاط المخاطَبين، وشدِّ انتباههم، كما أنَّ لأسلوب الأمر والنهي قدرةٌ دقيقةٌ في تصوير مشاعر الخطيب وتجديد أفكاره المتنوعة، مما يَعضُد الحِجاج، ويساعد في عملية الإقناع، وحمل المتلقين على الإذعان.

.